المحاضرة السادسة: أعلام الاتجاه الليبرالي العربي

(رفاعة رافع الطهطاوي، خير الدين التونسي، قاسم أمين، أحمد لطفي السيد)

الاتجاه الليبرالي العربي هو من أبرز الاتجاهات الفكرية والسياسية التي ظهرت في الوطن العربي خلال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وقد ارتبط بالدعوة إلى الإصلاح السياسي، والدستور، والحرية، والتعليم الحديث، وحقوق الفرد، وفصل السلطات، والاستفادة من منجزات الحضارة الغربية مع الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية، وقد برز عدد من المفكرين والأدباء والسياسيين الذين مثّلوا هذا الاتجاه وأسهموا في تطويره، ومن أهم أعلامه:

1. رفاعة رافع الطهطاوي (1801 - 1873)

يمثل أحد أبرز رواد النهضة الفكرية والإصلاحية في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر، وقد لعب دورًا محوريًا في نقل العلوم والمعارف الحديثة إلى العالم العربي، كما أسهم في تطوير الفكر التربوي والسياسي والاجتماعي في مصر، ارتبط اسمه بحركة التحديث في عهد محمد علي باشا، ويُنظر إليه باعتباره أحد أوائل المفكرين العرب الذين سعوا إلى التوفيق بين الحضارة الإسلامية ومكتسبات الحضارة الأوروبية الحديثة. وُلد سنة 1801م بمدينة طهطا في صعيد مصر، في أسرة تنتمي إلى الأوساط الدينية والعلمية، تلقّى تعليمه الأولي في بلدته، ثم انتقل إلى القاهرة حيث التحق بالأزهر الشريف، وهناك درس العلوم الدينية واللغة العربية والبلاغة والمنطق والفقه، وقد تأثر بعدد من شيوخ الأزهر، وخاصة الشيخ حسن العطار الذي كان من دعاة الانفتاح على العلوم الحديثة والتجديد الفكري، وكان له تأثير كبير في تشكيل شخصية الطهطاوي الفكرية.

عمل الطهطاوي بعد تخرجه إمامًا وواعظًا، ثم اختاره محمد علي باشا سنة 1826م ليكون إمامًا للبعثة العلمية المصرية التي أُرسلت إلى فرنسا، وكانت هذه الرحلة نقطة تحول كبرى في حياته؛ إذ أقام في باريس حوالي خمس سنوات، اطّلع خلالها على المجتمع الفرنسي ومؤسساته السياسية والعلمية والتعليمية والثقافية، تعلّم اللغة الفرنسية وأقبل على دراسة العلوم الحديثة والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والقانون، كما اطّلع على الفكر السياسي الأوروبي وأفكار عصر التنوير. وقد أُعجب بما شاهده من تقدم علمي وتنظيم إداري واحترام للقانون، لكنه في الوقت نفسه ظل متمسكًا بهويته الإسلامية والعربية، فحاول فهم أسباب تقدم الغرب وكيفية الاستفادة منها في إصلاح المجتمع المصري.

بعد عودته إلى مصر سنة 1831م بدأ نشاطه العلمي والفكري الواسع، فعُيّن مترجمًا ثم مشرفًا على حركة الترجمة والتعليم، وأسهم في إنشاء مدرسة الألسن سنة 1835م، وهي من أهم المؤسسات التعليمية الحديثة في مصر آنذاك، حيث هدفت إلى إعداد مترجمين ونقل العلوم الأوروبية إلى العربية. وقد أشرف بنفسه على ترجمة عدد كبير من الكتب في مجالات التاريخ والجغرافيا والهندسة والعلوم العسكرية والقانون والسياسة.

كان الطهطاوي يؤمن بأن النهضة لا تتحقق إلا بالعلم والتعليم، لذلك دعا إلى تحديث نظام التعليم، ونشر المعرفة، والانفتاح على العلوم الحديثة. كما رأى أن اللغة العربية قادرة على استيعاب العلوم الجديدة إذا تم تطوير أساليب التعليم والترجمة، من أشهر مؤلفاته كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، الذي دوّن فيه مشاهداته وانطباعاته عن فرنسا، ويُعتبر هذا الكتاب من أهم كتب الرحلات العربية الحديثة، لأنه لم يقتصر على وصف المدن والعادات، بل تضمّن تحليلًا للمجتمع الفرنسي ونظامه السياسي والتعليمي والاجتماعي، وقد تناول فيه مفاهيم مثل الحرية والمواطنة، واحترام القانون، والعمل، والتنظيم الإداري، كما ألّف كتبًا أخرى مهمة مثل: "المرشد الأمين للبنات والبنين" الذي دعا فيه إلى إصلاح التعليم وتربية المرأة، وله أيضا "مناهج الألباب المصرية" الذي تناول فيه أحوال المجتمع المصري وسبل إصلاحه، كما له " نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز"، و ترجمات متعددة لكتب أوروبية في القانون والتاريخ والجغرافيا.

ويُعتبر الطهطاوي من أوائل المفكرين العرب الذين دعوا إلى تعليم المرأة، إذ رأى أن المرأة عنصر أساسي في بناء المجتمع، وأن تعليمها لا يتعارض مع الدين الإسلامي، كما دعا إلى غرس روح الوطنية والانتماء للوطن، ولذلك يُنظر إليه أيضًا كأحد رواد الفكر الوطني المصري الحديث. وفي المجال السياسي، تأثر الطهطاوي بالنظم الدستورية الأوروبية، فأشاد بمبدأ العدالة والمساواة أمام القانون، ورأى أن الحكم الصالح يقوم على الشورى واحترام الحقوق. لكنه لم يكن داعية إلى تقليد الغرب تقليدًا مطلقًا، بل دعا إلى الاستفادة من التقدم الأوروبي في إطار المرجعية الإسلامية والقيم العربية. ولكن مشاريعه الإصلاحية واجهت بعض التحديات، خاصة بعد تراجع سياسة التحديث في فترات معينة من حكم أسرة محمد علي، فتم إبعاده لفترة إلى السودان، لكنه عاد لاحقًا إلى العمل العلمي والتربوي.

توفي رفاعة الطهطاوي سنة 1873م، بعد أن ترك أثرًا بالغًا في الفكر العربي الحديث. ويُعدّ من الشخصيات المؤسسة للنهضة العربية الحديثة، إذ أسهم في تحديث الفكر والتعليم والترجمة، وفتح الباب أمام الأجيال اللاحقة للتفاعل مع الحضارة الأوروبية بصورة نقدية واعية. بعدما ارتبط اسم الطهطاوي بمشروع الإصلاح الثقافي والتربوي في العالم العربي، لأنه كان من أوائل من أدركوا أن النهضة الحقيقية تقوم على العلم، والتعليم، والانفتاح الفكري، مع الحفاظ على الهوية الحضارية للأمة.

2. خير الدين التونسي (1820 - 1890)

يمثل أيضا من أبرز أعلام الفكر الإصلاحي والسياسي في العالم العربي والإسلامي خلال القرن التاسع عشر، وقد ارتبط اسمه بمحاولات تحديث الدولة التونسية وإصلاح مؤسساتها على أسس إدارية وتعليمية وعسكرية حديثة، مع المحافظة على المرجعية الإسلامية. كما يُعتبر من رواد النهضة العربية والإصلاح السياسي في العصر الحديث، إلى جانب رفاعة رافع الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني وغيرهم. وُلد سنة 1820م في منطقة القوقاز، ويرجّح أنه من أصول شركسية، ثم نُقل صغيرًا إلى إسطنبول في إطار نظام المماليك العثماني، قبل أن ينتقل إلى تونس حيث تبناه الوزير التونسي أحمد باشا باي، تلقّى تعليمًا متميزًا شمل العلوم الدينية واللغات والعلوم العسكرية والإدارية، وهو ما ساعده لاحقًا على الاضطلاع بمناصب سياسية كبرى داخل الدولة الحسينية في تونس.

بدأت مسيرته السياسية في البلاط التونسي في عهد البايات الحسينيين، وتميز بذكائه الإداري واطلاعه على التجارب الأوروبية الحديثة. وقد أُرسل في عدة بعثات إلى أوروبا، خاصة إلى فرنسا، فاطلع عن قرب على التنظيمات السياسية والإدارية الغربية، وتأثر بما شاهده من تقدم علمي وصناعي ومؤسساتي. غير أنّه لم يدعُ إلى تقليد الغرب تقليدًا أعمى، بل دعا إلى الاستفادة من أسباب التقدم الأوروبي مع الحفاظ على هوية الأمة الإسلامية وقيمها.

تدرّج خير الدين في المناصب السياسية حتى أصبح وزيرًا أكبر (رئيسًا للحكومة) في تونس سنة 1873م. وخلال فترة حكمه القصيرة نسبيًا، حاول تنفيذ مجموعة واسعة من الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والتعليمية. سعى إلى تنظيم مالية الدولة ومحاربة الفساد، وإصلاح القضاء، وتحديث الجيش، وتطوير التعليم. كما اهتم بإرساء نوع من الإدارة القائمة على الكفاءة بدل المحسوبية. ومن أبرز إنجازاته تأسيس المدرسة الصادقية سنة 1875م في تونس، وهي مؤسسة تعليمية هدفت إلى الجمع بين التعليم العربي الإسلامي والعلوم الحديثة واللغات الأجنبية. وقد لعبت هذه المدرسة دورًا مهمًا في تكوين النخب التونسية الحديثة، وأصبحت من أهم مؤسسات التعليم الإصلاحي في المغرب العربي.

اشتهر خير الدين كذلك بكتابه المهم "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، الذي صدر سنة 1867م، ويُعد من أهم كتب الفكر الإصلاحي العربي في القرن التاسع عشر، تناول فيه أسباب تقدم الدول الأوروبية، وحاول تحليل عوامل القوة والنهضة فيها، مثل احترام القانون، وتنظيم الإدارة، ونشر التعليم، والاعتماد على الشورى والعدل، كما أكّد أن الإسلام لا يتعارض مع التقدم والتمدن، بل إنّ التخلف ناتج عن سوء الإدارة والجمود الفكري. في هذا الكتاب دعا خير الدين إلى: إصلاح الحكم والإدارة ونشر التعليم الحديث والأخذ بالعلوم والتقنيات الأوروبية وإقامة العدل والشورى ومقاومة الاستبداد والفساد، وتقوية الدولة الإسلامية لمواجهة التدخل الأوروبي.

لقد تميز فكره بالاعتدال؛ فهو لم يكن داعية إلى التغريب الكامل، ولا منغلقًا على التراث، بل حاول التوفيق بين الأصالة الإسلامية ومتطلبات العصر الحديث، لذلك يُنظر إليه بوصفه أحد أبرز ممثلي "الإصلاحية الإسلامية" في القرن التاسع عشر. بعد مغادرته تونس نتيجة الصراعات السياسية والضغوط الداخلية، انتقل إلى إسطنبول حيث تولّى مناصب رفيعة في الدولة العثمانية، من بينها منصب الصدر الأعظم سنة 1878م في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، غير أنّه لم يلبث طويلًا في هذا المنصب بسبب الخلافات السياسية داخل البلاط العثماني.

توفي خير الدين التونسي سنة 1890م في إسطنبول، بعد حياة حافلة بالنشاط السياسي والفكري والإصلاحي، وقد ترك أثرًا عميقًا في الفكر العربي الحديث، وأسهم في تمهيد الطريق أمام الحركات الإصلاحية والنهضوية التي ظهرت لاحقًا في العالم العربي والإسلامي، إذ يُعتبر من أوائل المفكرين العرب الذين حاولوا دراسة الحضارة الأوروبية دراسة نقدية واعية، واستخلاص عناصر القوة فيها دون التخلي عن الهوية الإسلامية، ولذلك ظلّ اسمه مرتبطًا بمشروع النهضة والإصلاح السياسي والتربوي في الوطن العربي الحديث.

3. قاسم أمين (1863 - 1908)

يُعدّ من أبرز المفكرين العرب في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، واشتهر بدعوته إلى إصلاح أوضاع المرأة والمجتمع، حتى لُقّب بـ "رائد تحرير المرأة" في العالم العربي. وقد ارتبط اسمه بحركة النهضة الفكرية والإصلاح الاجتماعي في مصر، إلى جانب شخصيات مثل رفاعة رافع الطهطاوي ومحمد عبده. وُلد سنة 1863م بمدينة الإسكندرية في مصر، وكان والده ضابطًا كردي الأصل عمل في الجيش المصري، أما والدته فكانت مصرية من صعيد مصر. نشأ في بيئة متعلمة وميسورة نسبيًا، ما أتاح له فرصة التعليم الجيد، تلقّى تعليمه الابتدائي والثانوي في مصر، ثم التحق بمدرسة الحقوق الخديوية في القاهرة، حيث درس القانون والعلوم السياسية، بعد تخرجه أُرسل في بعثة إلى فرنسا لاستكمال دراسته، وهناك تأثر بالحياة الفكرية الأوروبية وبأفكار الحرية والتقدم والإصلاح الاجتماعي، كما اطّلع على الفلسفات الحديثة والنظام السياسي والاجتماعي الأوروبي، وهو ما ترك أثرًا واضحًا في تكوينه الفكري .وخلال وجوده في فرنسا تعرّف على أفكار عدد من المفكرين الإصلاحيين، وتأثر أيضًا بأستاذه وصديقه الإمام محمد عبده الذي كان له دور كبير في توجيه فكره الإصلاحي، بعد عودته إلى مصر عمل في سلك القضاء، وتدرج في المناصب القضائية حتى أصبح من كبار القضاة، وقد عُرف بنزاهته وثقافته الواسعة واهتمامه بالقضايا الاجتماعية والفكرية إلى جانب عمله القانوني.

اشتهر قاسم أمين أساسًا بدعوته إلى إصلاح وضع المرأة في المجتمع المصري والعربي، إذ رأى أن نهضة المجتمع لا يمكن أن تتحقق في ظل تهميش المرأة وحرمانها من التعليم والمشاركة الاجتماعية. وقد أثارت أفكاره جدلًا واسعًا في عصره، بين مؤيدين اعتبروه مجددًا ومصلحًا، ومعارضين رأوا في أفكاره تأثرًا مفرطًا بالغرب. من أشهر مؤلفاته كتاب "تحرير المرأة" الذي صدر سنة 1899م، وقد دعا فيه إلى: تعليم المرأة تعليمًا حديثًاوتحسين مكانتها الاجتماعية كما دعا إصلاح نظام الزواج والطلاق والحد من العزلة الاجتماعية المفروضة على النساء، وإعادة النظر في بعض العادات والتقاليد المتعلقة بالحجاب والاختلاط. ثم أصدر كتابه الثاني "المرأة الجديدة" سنة 1900م، وواصل فيه الدفاع عن أهمية تعليم المرأة ومشاركتها في بناء المجتمع، معتبرًا أن المرأة المتعلمة تساهم في تربية جيل متقدم وقادر على النهوض بالأمة.

لم يكن قاسم أمين يدعو إلى تقليد الغرب بصورة كاملة، بل كان يرى أن الإسلام في جوهره منح المرأة حقوقًا مهمة، وأن ما تعانيه المرأة الشرقية من تهميش يرجع إلى التقاليد الاجتماعية وسوء فهم الدين أكثر مما يرجع إلى الإسلام نفسه، لذلك حاول الربط بين الإصلاح الاجتماعي والمبادئ الإسلامية المعتدلة. وجلبت له أفكاره وراءه هذه تعرّضه لهجوم شديد من بعض المحافظين ورجال الدين الذين اتهموه بالدعوة إلى التغريب والانحلال، بينما دافع عنه عدد من المثقفين والإصلاحيين الذين رأوا في أفكاره خطوة ضرورية نحو تحديث المجتمع، ومع مرور الوقت أصبحت أفكاره جزءًا أساسيًا من النقاش الفكري حول قضايا المرأة والتعليم والإصلاح الاجتماعي في العالم العربي.

إلى جانب قضية المرأة، اهتم قاسم أمين بقضايا أخرى مثل التربية، والأخلاق، وإصلاح المجتمع، والنهضة الوطنية، وكان يرى أن التقدم الأوروبي لم يتحقق إلا بالعلم والحرية واحترام العقل، وأن المجتمعات العربية بحاجة إلى إصلاح فكري وتربوي شامل.

توفي قاسم أمين سنة 1908م بالقاهرة، لكنه ترك أثرًا فكريًا عميقًا استمر بعد وفاته، وأصبح اسمه مرتبطًا بحركة الإصلاح الاجتماعي والنسوي في العالم العربي الحديث، وقد أسهمت كتاباته في فتح باب واسع للنقاش حول مكانة المرأة وحقوقها ودورها في النهضة العربية، إذ يُنظر إليه اليوم بأنه أحد أبرز رواد التنوير والإصلاح الاجتماعي في الفكر العربي الحديث، لأنه حاول معالجة قضايا المجتمع من منظور يجمع بين الحداثة والإصلاح الثقافي والاجتماعي، مع التأكيد على أهمية التعليم والعقل في بناء نهضة الأمة.

4. أحمد لطفي السيد (1872 - 1963)

من أبرز رواد الفكر الليبرالي في مصر والعالم العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين، وقد ارتبط اسمه بالدعوة إلى الحرية، والعقلانية، والدستور، والتعليم الحديث، حتى لُقّب بـ"أستاذ الجي" لما كان له من تأثير عميق في الحياة الفكرية والسياسية والثقافية. وُلد سنة 1872م بقرية برقين بمحافظة الدقهلية في مصر، ونشأ في أسرة ريفية ميسورة اهتمت بتعليمه، تلقى تعليمه الأولي في الكتّاب، ثم انتقل إلى القاهرة حيث التحق بمدرسة الحقوق، وهناك تأثر بالحركة الإصلاحية والفكرية التي كان يقودها عدد من المفكرين مثل محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، وقد ساعده تكوينه القانوني على الاهتمام بقضايا الدولة والدستور والحقوق السياسية.

بدأ نشاطه الفكري والسياسي في فترة كانت مصر تعيش فيها تحت الاحتلال البريطاني، وكانت النخبة المصرية تبحث عن سبل الإصلاح والنهضة. آمن أحمد لطفي السيد بأن التقدم لا يتحقق إلا من خلال نشر التعليم، وإقامة حكم دستوري، واحترام الحريات العامة، وترسيخ سلطة القانون، لذلك انخرط في الحياة السياسية والصحفية، واتخذ من الصحافة وسيلة لنشر أفكاره الليبرالية، فتولّى رئاسة تحرير جريدة الجريدة التي أصبحت منبرًا للفكر الليبرالي في مصر، ومن خلالها دعا إلى الحرية الفردية، وحرية الصحافة، والحكم الدستوري، والإصلاح الاجتماعي، كما انتقد الاستبداد السياسي، ورأى أن الأمة لا يمكن أن تنهض إلا إذا شارك المواطنون في الحياة السياسية مشاركة واعية، ومن أهم أفكاره دعوته إلى العقلانية والاعتماد على الفكر العلمي، حيث تأثر بالفلسفة اليونانية والأوروبية الحديثة، وعمل على نشر الفكر الفلسفي في الثقافة العربية، كما اهتم بترجمة مؤلفات الفيلسوف اليوناني أرسطو إلى العربية، إيمانًا منه بأهمية الفكر العقلي في بناء الحضارة. وكان يرى أن التعليم هو أساس نهضة المجتمع، ولذلك اهتم بتطوير المؤسسات التعليمية وربطها بروح العصر.

يُعتبر أحمد لطفي السيد من أبرز المدافعين عن الليبرالية السياسية في مصر، فقد دعا إلى احترام حقوق الفرد وحرياته، ورفض الحكم المطلق، وطالب بقيام دولة مدنية تقوم على الدستور والقانون، كما آمن بفكرة القومية المصرية، واعتبر أن المصريين يشكلون أمة لها خصوصيتها الوطنية، وهو ما جعله يختلف مع بعض دعاة الجامعة الإسلامية أو القومية العربية في تلك المرحلة، لم يقتصر نشاطه على الفكر والسياسة

فقط، بل تولّى مناصب ثقافية وتعليمية مهمة؛ فقد أصبح مديرًا لدار الكتب المصرية، ثم تولّى رئاسة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة لاحقًا)، وأسهم في تطوير التعليم الجامعي وترسيخ استقلال الجامعة وحرية البحث العلمي، وقد عُرف بدفاعه عن استقلال الجامعة أمام السلطة السياسية، واعتبر أن حرية الفكر شرط أساسي لتقدّم الأمة. كما ارتبط اسمه بعدد من القضايا الفكرية الكبرى في عصره، ودخل في نقاشات حول الحرية، والديمقراطية، والعلاقة بين التراث والحداثة، وكان يميل إلى التوفيق بين الأصالة والتجديد دون انغلاق أو تقليد أعمى للغرب.

كما امتاز أسلوبه بالاعتدال والهدوء والاعتماد على الحجة العقلية، لذلك حظي باحترام واسع بين المثقفين والسياسيين، وقد ترك تأثيرًا كبيرًا في الأجيال اللاحقة من المفكرين المصريين والعرب، وأسهم في ترسيخ الفكر الليبرالي الحديث في العالم العربي.

توفي أحمد لطفي السيد سنة 1963م بعد حياة طويلة حافلة بالعطاء الفكري والسياسي والتعليمي، وظل يُنظر إليه باعتباره أحد أهم رواد النهضة الفكرية الحديثة في مصر والعالم العربي، وأحد أبرز المدافعين عن الحرية والعقل والدستور والتعليم الحديث.

المصادر والمراجع:

1. أحمد لطفي السيد، **تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012 .
2. أحمد لطفي السيد، **قصة حياتي**، دار الهلال، القاهرة، 1962 .
3. ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939**، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت .
4. محمد عمارة، **الإسلام بين التنوير والتزوير**، ط2، دار الشروق، القاهرة، 2002 .
5. جرجي زيدان، **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر**، مؤسسة هنداوي، 2011 .
6. **الحديث** لويس عوض، **تاريخ الفكر المصري** ، دار الهلال، القاهرة .
7. خير الدين التونسي، **أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك**، دار الكتاب المصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، 202121